صَبّاغ

احمد راسم

كلمة

لحضرة صاحب المعالى الدكتور حافظ عفيفى باشا

هذه رسالة قصيرة بليغة يقدم فيها الاستاذ احمد راسم فناناً قديراً هو الاستاذ جورج صبّاغ . ولما طلب إلى أن أُقدم هذه الرسالة استوقفنى القلم هنيهة يسائلنى : مَنْ مِنَ الاستاذين الشاعر ومن المصوّر ؟ ووقع التساؤل من نفسى موقعاً حسناً ، فما غاب عن ذهني قط أن الاستاذ راسم مصور فنّان ، إلا أنه يعبر عن صوره وأحاسيسه بالشعر المنثور . كذلك لم أكن أشك في أن الاستاذ صباغ شاعر مطبوع يترجم شعره البليغ الى صور ملونة خلابة

ولا يخفى أن بين الاستاذين الشيء الكثير من أوجه الشبه ، فكلاهما مجيد في طريقته ، نابغة في فنه ، وكلاهما يتمتع بقسط كبير من ثقافة الغرب . ومع ذلك فشعر راسم شرقى فى معناه ومبناه ، فى طعمه ورائحته . وكذلك قد دمغ الشرق صور صباغ أو أغلب صوره بطابعه ، فنجد فيها ألوان الشرق الزاهية ، وسماءه الصافية ، وشواطىء بحاره الهادية ، وحرارته المستمرة ، وهدوءه التقليدي . كل هذا كان أثره واضحاً في كل لوحة من لوحات صباغ الخالدة . يعيش كلا الاستاذين لفنه ولا يعيش منه ، وانى لاستطيع أن أجزم بأنهما سيرتفعان في فنهما الى أعلى عليين . أما من ناحية المادة فانهما سيبقيان كما هما الآن ، اللهم إلا إذا أصاب أحدهما أو أصابهما معاً حظ النمرة الرابحة فى اللوترية الارلندية أو الاسبانية أو الفرنسية

لست بالشاعر لأتحدث عن شعر راسم . ولكننى أعجبت أيما إعجاب

« بتاجر المسك » و « الابتسامة الاخيرة للمسيح ». ولست بفنان لأتكلم عن صور صباغ، ولكني أعجبت بكل ما رأيت من صور صباغ العديدة سواء أكانت من نوع صور الاشخاص Portraits أو من نوع المناظر الطبيعية Paysages . وكلها تدل على التقدير السليم، وتنطق عن الدقة المتناهية وتشهد بالذوق المتأصل والفهم التام لكل معاني الجمال

ولو اكتفى الشعراء برضاء أمثالهم الشعراء عنهم، ورضى الفنانون بتقدير أهل الفن من اخوانهم لهم. لقضى على الشعر والفن معاً. فاذا كنا حريصين على بقاء الشعر والفن، فينبغى اذاً للهواة أن يتكلموا. وعندها يصح لى أن أهنىء الاستاذ راسم على هذه الكلمات الموفقة التى قدم بها الاستاذ صباغ الى قرائه، كما يصح لى أن أهنىء الاستاذ صباغ بما أحرزه من تقدير عظيم في أنحاء الشرق والغرب

* * *

وليس الفن غريباً عن مصر. فها هى ذى آثارنا القديمة: فرعونية كانت أم عربية، يشهد لها جميع رجال الفن بأنها أرقى ما أخرجته القرائح ورسمته ريشة الفنانين، سواء أكان ذلك فى البناء، أم الزخرفة أم النقش أم صناعة الزجاج والقيشانى أم التصوير أم النحت أم النجارة أم الرسم أم التلوين أم النسيج. وقد حفلت بها جميعاً دور آثارنا الفرعونية والعربية والقبطية

والمصرى فنان بطبعه. وان من أتيحت له منا فرصة زيارة الاقصر وشاهد كيف يقلد الصبية والغلمان الآثار القديمة وهم لم يتعلموا حرفاً أو يمسكوا قلماً، لا يشك في صحة ما أقول. فهم الى الآن يقلدون الجمارين القديمة تقليداً يصعب معه معرفة القديم من الحديث

منذ سنين عديدة طلب إليَّ أن اشترى عشرين جعراناً قديماً لتقديمها هدية ، فقمت بمهمة الشراء مستعينا بالمسيو لوجران الذى كان مفتشا عاما لمصلحة الآثار، وكان يعتبر حجة في فحص الجعارين . وعرض على نفس التاجر بعد ذلك أن اشترى عشرين جعراناً جديداً بثمن بخس فاشتريتها . ووضع التاجر القديمة في ورقة خاصة والجديدة فى ورقة أخرى ، والاثنتين فى علبة . فلما عدت بها الى مصر وفتحت علبة الجعارين قبل إرسالها لمن طلبها وجدت أن الجعارين القديمة اختلطت بالجديدة فأردت أن استعين بالمسيو لوجران مرة أخرى لفصل القديم من الجديد فاستحال عليه ذلك قائلا :

« ان هذا لدليل على أنَّ الفن لم يمت فى مصر »

ليس الفن هو الذى مات في مصر ، إنما هو تقدير الفن الذى مات ، ومات هذا التقدير بنوع خاص عند طبقة الاغنياء ، وهم كما نعلم حماة الفن في جميع أنحاء العالم ، لأنهم هم الذين يستطيعون احياء الفنانين بمالهم

وفي مصر الآن كثيرون من نوابغ الفنانين أمثال صباغ وناجى ومحمود سعيد ومحمد حسن وصبرى واذكر هؤلاء على سبيل التمثيل لا الحصر . وفيها كذلك كثيرون من رجال الثقافة الذين يقدرونَ فن هؤلاء ويدركون قيمته . ولكن عددهم قليل وثروتهم لا تسمح لهم بتقديم مساعدة إلا فيما يكتبون بأقلامهم كما يفعل الآن الاستاذ راسم

وفي مصر طبقة أخرى دعية كل همها أن يقتنى أفرادها صورة أو صورتين لرسام اشتهر شهرة عالمية ـ أعنى أنه ميت ـ وهو لا يشترَ بها لانه فهمها فأعجبته ، أو قدرها فاستهوته . ولكنه اشتراها ليفخر بأنه اقتنى صورة من عمل فنان معروف بالذات

كل هذا يلقى على الحكومة في مصر تبعات كثيرة ، فان عليها وهى التى تقوم بتثقيف الشعب وتهذيبه ان تأخذ بيد الفنانين لتحيي الفن وهو غذاء الشعب الروحى . وعندى انها ، لتثقيف الشعب وتحسين الذوق العام واحياء الفن ، يجب أن تبدأ بتجميل المدارس وتنسيقها وتحليتها بتمثال جميل أو صورة قيمة أو ما اشبه . كما يحسن ان تكون دور الحكومة نفسها مثالا لحسن الذوق في بنائها واثاثها وزخرفها وتحفها

يجب على الحكومة ان تقوم بذلك لتساعد على احياء الفن بايجاد عمل للفنانين . حتى يحين الوقت الذى يرتفع فيه مستوى الثقافة فيصل تقدير الفن الى الطبقات الغنية والمتوسطة . كما يجب علينا اخيرا اذا اردنا ان نحيي الفن المصرى ان نضمن الراحة والطمأنينة للفنانين

حافظ عفيفى

جورج صباغ

رجل شرقي ، تدمغه روح الشرق ، وتلازمه نفحات الشرق . لا نقول ذلك ارتكاناً على أنه ولد بمصر ، ولا لأن اسلوبه في التصوير يتصل الى اسلوب الفنانين الشرقيين بسبب ، وانما نعني بذلك أنه شرقي المزاج شرقي الطبع

يحب «صباغ» الحياة على نسق كل شرقي أصيل ، ويجدُ في حبها لما تحويه من متاع وجمال واغراء ، ويظهر أثر ذلك في أغلب صوره التي تموج بالحركة وتتضوأ بالنور ، وفيما يستشف من لوحات الغواني اللائي تختلط الاشعة بعقيق دمهن الحار

يحب الحياة كفنان دقيق ، ويحبها كشرقي عريق ، يحب البحر ويحب السماء ، ويحبهما معاً لشعوره بحاجته الى امتاع جسمه بمياه البحر والى اشباع نفسه بزرقة السماء ، يحب الزهر ويحب الثمار ، ويحبهما معاً لاحساسه بالحاجة الى استنشاق أريج الزهر والى استيعاب طعم الثمار . ولما كان « صباغ » يحب النساء أيضاً فقد سجل جمالهن على لوحاته تسجيلاً رائعاً وان لم يكن دائماً جمالاً نموذجياً La Beauté Classique مما تغنّى به قدماء الاغريق وافتنوا في تصويره

والواقع أن « صباغ » يحب الجمال المتواضع الذى يخلب حسنه الروح ويذهب سحره بالارادة . يحب الجمال الهادىء الذى يعصر القلب ويأسر اللب . يحب الجمال الصامت المقتطع من جمال الطبيعة . ويحب الجمال اليتيم الذى يدركه محبو الجمال في قصيد الشعراء . وهذا وحده سر الروعة ، ذلك السر الذى يظهر ويختفي في جو لوحاته ، وهو عينه ما يجعل الرائي قبالة صوره مبهوراً من ذلك « المجموع » الرائع الجذاب

« صباغ » مصور البحار والجبال ، مصور الاشجار والظلال ، مصور الاشعة والهواء ، وإنه قبل كل شيء مصور المرأة العارية (Nu académique) وهذه هي الميزة التي فاز فيها باعجاب فناني الغرب . وانه ليكفيه فخراً أننا نجد الى اليوم بعضاً من تلك اللوحات الكريمة معروضة في أبهاء المتاحف الباريسية الكبرى

ومما تجب العناية به ، إزاء دراسة فن مصور من المصورين ، أن نلم بحياته إبان طفولته وان نتفهم الوسط الذى عاش فيه وأن نستقصى الوسائل التى مهدت له سبيل الاشتغال بفنه، «لان كل فنان من إقليم معين يحمل في صدره أثمار حديقته»

***

لما بلغ « صباغ » التاسعة عشرة من عمره أوفده والده الى باريس لدراسة علم الحقوق ، واذ كان أبوه ميسوراً استطاع أن يدر عليه مالا وافراً لا تصح المقارنة بينه وبين ما كان يتقاضاه أمثاله من الطلبة في بلاد الغربة

كان « صباغ » في ذلك الوقت شاباً مثقفا اعتنى أبواه بتربيته عناية خاصة ولُقن معاني الحياة تلقيناً يتفق وتقاليد بيته ، هذا فضلا عما امتاز به من الذكاء الفطري والاستعداد الشخصي للفنون . ولما كان شغفه عظيما بالفن الجميل فقد أهمل دراسة القانون ومال الى الاشتغال بالتصوير ، فعاشر طبقة من كبار الفنانين ولازمهم ملازمة تامة فلم تفته محاضرة فنية أو حفلة موسيقية أو معرض من معارض التصوير إلا حضره ، واندمج في وسط الفنانين وعاش في جو الفنون كما يعيشون ونسى تماماً أنه أوفد الى فرنسا لدراسة علم غير فن التصوير

ولم يستطع أحد ، حتى « صباغ » نفسه ، أن يتنبأ إذ ذاك عن المستقبل الذى كان ينتظره من جراء اهمال دراسة الحقوق ، وكان من المستحيل أن

يتصور انسان أن سيجيء اليوم الذى يشتغل فيه « صباغ » بفن التصوير اشتغالا جديا ، الى حد أن يبرع فى هذا الفن وان تتهافت المعارض الباريسـية على الاستيلاء على صوره و بيعها بأثمان غالية ، وأن تستقبل كذلك معظم المتاحف الفرنسية والاوربية والامريكية لوحاته بارتياح وترحيب لعرضها جنبا لجنب مع تحف فطاحل الفنانين

وما أحس والد « صباغ » أن ولده لم يعن بالدراسة التى من أجلها أرسله الى فرنسا ، وأنه انصرف الى شيء آخر ما كان يليق به أن ينصرف اليه ، حتى ابدى له رغبته في أن يعود الى مصر توا ليزوجه من فتاة مثرية من اقاربه ، ولكن صباغاً اصر على عدم اجابة رغبة والده والرضوخ لارادته ، فحز ذلك في نفسه وافعم قلبه غضبا عليه فقطع عنه المعونة المالية التى كان يمده بها عقابا له على عقوقه . وما الفى «صباغ» نفسه في تلك الضائقة حتى صح عزمه على الاقامة في باريس مهما كلفه ذلك من الجهد والمشقة ، ودأب على السعي في ايجاد اى عمل يعيش منه ، وقد تكلل سعيه بالنجاح وحصل على وظيفة بسيطة في محل سيارات «رولز رويس» وقنع بذلك وعاش بمرتبه التافه عيشة متواضعة اغنته عن مدد والده

سألت « صباغاً » يوما عن العوامل النفسية التى انتابته من جراء عيشـة الضنك التى اكتوى بها بعد ان اعتاد الحياة فى حضانة الرفاهية والرغد فاجاب: « يسهل على المرء ان يحتمل وعورة الطريق التى يختارها ولو كانت مملوءة بالشوك والقتاد ، على ان العقبات التى اعترضت طريقى لم تكن شائكة الى الحد الذى كنت اتصوره ! لان الذي احتمل ويلات العيش واعتاد شقاءه طيلة مدة الحرب ، لا يصعب عليه ان يحتمل الصبر في وظيفة صغيرة كالتي وفقت اليها ، وعلى هذا كان اغتباطي ورضائى كبيرين فى عملى الصغير ، وصادفنى ظرف

موفق مهد لى سبيل النجاح : ذلك بانه اتفق أن زملائي كانوا يتخاذلون فى عملهم وينقطعون عن الحضور فى أغلب الأوقات ، الأمر الذى لفت نظر رئيسى الى ذلك الفارق المحسوس بين نشاطى وتهاونهم . ولم تمض مدة وجيزة إلا وقد ضاعف مرتبي وعينني وكيلا للمكتب ، فادركت بذلك بغيتى وأصبحت موظفاً ذا مكانة محترمة . ولم اكن بعد قد فكرت في الاشتغال بفن التصوير اشتغالا جدياً . وكان في استطاعتى أن أعود الى مصر وأن أهيء لنفسى عيشة هادئة بالزواج فاكون قد حققت بذلك رغبة والدى ، ولكن الظروف أبت أن تحقق هذا إذ كنت في تلك الفترة قد ارتبطت مع فتاة فرنسية برابطة الصداقة ، ولقيت من تلك الرابطة هناءة وطمأنينة ، وقد درت علىّ صداقتها مالم تدره علىّ صداقات الناس جميعاً ، وكان طبيعياً أن تتحول تلك الصداقة الى حب ثم الى زواج وعلى ذلك فضلت أن أبقى بجانبها وأن لا أبرح باريس ولو اني أزاول عملا تافها »

***

تزوج « صباغ » من تلك الفتاة ، وفى الحق انها كانت على جانب كبير من الثقافة ، ولها ولع بالفنون الجميلة بصفة عامة ، ولها ميل الى فن التصوير بنوع خاص

بدأ « صباغ » بعد ذلك يشتغل بفن التصوير وهو يجهل الكنوز الثمينة التى كانت كامنة في اعماق قلبه ، والثروة الفنية التى كانت تتمشى فى مجرى عروقه والعبقرية الكريمة التى كان يتألق ضياؤها في عينيه . أخذ يشتغل مبدئيا بالتصوير لمجرد الهوية ، وما كان يدرك شيئاً عن ذلك الروح الخفى الذى كان يتأجج في صدره ، حتى لفت نظره صديق له الى ضرورة عرض بعض لوحاته في أحد معارض البيع ، ومن الحاح فريق من أصدقائه رضى « صباغ » أن يعرض بعضا

من لوحاته على المصور الـكبير « دنيس » Denis الذى اعجب بهـا وانزلها من عنايته منزلة طيبة لما بدا له فيها من نظر جديد فى معالجة أشعة النور ، فساق اليه كلم التشجيع ونثر عليه آيات التقدير مما انشرح له صدر « صباغ » . وطلب اليه الاستاذ « دنيس » أن يتردد عليه من حين لآخر ببعض مبتكراته إذ كان يلمح فيها روحا جديداً لنوع جديد في التصوير ، وقد شجعه ذلك على الاستمرار في التصوير بهمة ونشاط دائبين فصور كل ما وقع تحت نظره من مناظر باريس وضواحيها

***

ليسَ من الهين اليسير على امرىء قضى شطراً طويلا من شبابه في اقليم مثل مصر أن يمحو من ذهنه آلاف المناظر الخلابة التى انطبعت فيه ، ولا ان ينزع من وعيه مرأى المعابد والهيا كل والتماثيل التى ملأت عينيه بجلال احجامها وافعمت روحه باتزان نسـبها ، ولا ان ينجرد من ذلك الطابع الشرقي الساحر الذى اختلط بنفسه وجرى فى دمه ، ولا ان يخرج من قلبه وقار تلك الاجيال المتعاقبة وروعة ذلك الجو الصافي المشبع بأشعة سماء صافية،ولا ان ينسى عواطف شعب كريم واماني امة عاش فيها ردحاً طويلا من الزمن

حقا ان سنى الشباب هى النواة في تكوين شخصية الانسان ، وهى الاساس في تدعيمه لاستقبال دور الرجولة ، ولهذا كله لم يكن من الهين ان ينزع «صباغ» عن ريشته ذلك الطابع النورانى الذى حف جوانب نفسه ، ولم يقو على مغالبة ذلك السحر الشرقى الذى ملأ اركان قلبه ، وكان طبيعيا ان تمتاز صوره ، على الرغم منه ، بشخصية « غريبة » لا تلوح في صور اقرانه من الفنانين

***

ويجمل بنا ان نذكر اسم المصور الذي كان له بعض الاثر فى تكوين «صباغ» من الوجهة الفنية وهو المسيو فيلكس فالوتون Félix Valloton . ولكي نقوى على تكوين فكرة خاصة عن ذلك الاثر الذى تأثر به « صباغ » في حياته الفنية ، ونقف على الادوار التى مر عليها فى أثناء تكوينه ، يجب ان نلم قبل كل شيء بتاريخ الفترة التى بدأ فيها « صباغ » يشتغل بفن التصوير. كانت فترة انتقال فنى عجيب تلك التي صادفته مبتدئا ، وكانت فترة حارة فائرة تلك التي احتضنته وهو سائر في طريق التكوين ، بل كانت هى الفترة التى دوهمت بالنظريات الثورية التى عفى عليها الدهر بعد أن عفت على مستقبل كثير من الهواة والمصورين . وعلى الرغم مما بلغته نظرية « التصوير التأثرى » من سمو المكانة فى ذلك الوقت ، كانت جمهرة من الفنانين الثائرين على تلك النظرية يصادرونها ويحاربونها بكل ما أوتوا من بأس وقوة ، ويمهدون لها القبر الذى يئدونها فيه ، وكيف لا يهدمون اساس نظرية دعامتها تسجيل لون المرئيات دون الاهتمام بنسبة احجامها الى غيرها ؟ وكيف لا يبيدون نظرية جرفت وراءها شباب الفنانين فسممت عقولهم وقلبت ميزان تفكيرهم رأسا على عقب ؟ ؟ وكيف لا يقبرون نظرية شجعت المجددين على أن يضحوا « بحقيقة » الاشياء ويهزءوا بنسبة أحجام الاجسام بعضها الى بعض فاصبحوا يصورون الحياة ملونة بغير روح ولاعمق ؟

فكان أعداء تلك النظرية يجاهدون فى الرجوع الى « حقيقة » الاشياء لدرجة أن بالغوا في تسجيل حجوم الاجسام وتوازن نسبها ، وكانت مبالغة واجبة أدت الى ظهور نظرية « التصوير التكعيبى » ، وكان من اللازم أيضا ان تحاط تلك النظرية بشيء من المبالغة لارجاع الفن الى مركزه الاصلى .

فقامت فئة من الفنانين أرادوا أن يقفوا وسطا بين نظريتي « التصوير التأثرى والتكعيبي » . وكان المصور فيلكس فالوتون Félix Valloton من هؤلاء الذين يسعون الى العودة الى فن مبني على متانة البناء وجلال التوازن مع اجادة التصوير ودقة التلوين . ولو أن فنه كان خاليا من أية عبقرية تميزه تمييزاً واضحا من فن غيره من الفنانين ، إلا أن شخصيته جذبت اليها شخصية « صباغ » لما كان بينهما من صلة فى الشعور وتوافق في النظر ووحدة في البحث عن سر الجلال والتوازن ، ولم يكن في مقدور « صباغ » أن لا يتأثر بآراء الاستاذ فالوتون الذى كان يقوده ويعود به ، دون أن يشعر ، الى التوازن المستور في الفن المصري القديم

ولما كان « صباغ » يحس في طبعه جاذبية الى الاتزان والهدوء اللذين يجللان بناء المعابد المصرية القديمة ، جعله هذا الحس يميل في سهولة الى نزعة استاذه الذى كان يجنح الى تسجيل المناظر الرهيبة ذات الخطوط الجبارة

***

ظل « صباغ » بعد ذلك يزاول مهنة التصوير قراب عشرين عاما كأدق ما يكون فنان يتحصن بوحى الفن ويذوب فيه عاشقا وهاويا وفنانا ، فكان يدأب على عمله كل يوم بأمانة خالصة ونشاط عظيم ، فلم تصرفه شواغل الحياة عن التصوير لحظة ، ولم يكن لديه شىء في هذا العالم أغلى من حصر جميع أوقاته على الاشتغال بفنه دراسة وعملا . وأصبح من المصورين النادرين الذين يصورون المنظر غير مرة وفي ساعات مختلفة من ساعات الليل والنهار ، ليتمكن بذلك من تسجيل المنظر على تعدد تغيراته وتنوع روعاته وما يحمل من عواطف مشرقة أو ماينضوى فيه من هموم خفية أو مايحمله من هذين معا . وانا لنلمس تلك الظاهرة في سهولة

ورفق على صفحات لوحاته وإنها لتعلن عن نفسها فى جلاء ووضوح في كل مرحلة من مراحل حياته الفنية ، اذ أنه يعتقد أنه مادام المصور لا يستطيع لاول مرة ان ينقل صورة شخص نقلا صحيحا تتجلى فيه ناحية من طبعه وخلقه ، فكذلك لا يمكن للمصور ان يثبت الروح الحقيقية لمنظر ما الا اذا عاد الى تصويره غير مرة ليتأتى له ان يدرسه دراسة تامة ، وليتمكن من أن يصل في تصويره اياه الى الكمال الاعلى . و إنا لنرى للاستاذ « صباغ » من يوم بدايته الى يوم اعتلائه ذروة الفن ، مبتكرات غاية في الابداع ونهاية في الخيال المشبع بحقيقة الوجود ، وقد صور مناظر بعض الشواطىء الفرنسية بروح و يغدو عليها الفلاحون وصائدو الاسماك، يمشى الفقر فى قسمات وجوههم ،وكأن الشفقة تنحدر من الاجيال الماضية لتخفف من ويلات هؤلاء البؤساء . وترى له صورة لأم تحوطها افلاذ كبدها تعمل الفاقة فيهم كما تعمل النار في الهشيم ، وكأن روح الاستسلام والخضوع تملأ قلوبهم ذلة وانكسارا ، وترى له ايضا صورة اكواخ حقيرة تعلوها الاقذار ويرف عليها شبح الجوع وكأن مأساة الحياة تبكيها بكاء الثواكل ، ثم ترى له صورة لمنظر البحر وسط العاصفة تعلوه سماء مكفهرة تهدر فيها رعود داوية وتخترقها بروق خاطفة وكأن الموت يترصد فى كل مكان

ولو انا أردنا أن نأتى على باقى لوحاته التي على هذا المثال لضاق بنا الحصر واستنفد الوصف وقتاً طويلا . وحسبنا ما ذكرنا استشهاداً على براعة التخيل وسلامة الذوق الفنى . لقد عطفنا قبلا الى السبب الذى حدا « بصباغ » الى تصوير المنظر الواحد عدة مرات ليتمكن من ابراز الجلال الحقيقي الذى قد يلازم المنظر آناً ويختفى آناً آخر ، وليتمكن ايضاً من أن يغدق على الصورة ظلالا من منح الفن العزيز وأن يطابق بينه و بين الطبيعة ليجعله يسبح في جو شعرى

صاف ، ولهذا كان يتجلى أمامنا نفس المنظر مشرقا حينا ، وحينا عبوساً ، فيشبه ذلك ما يعلو وجه الانسان في مختلف الظروف من فرح أو هم

إنه يصور النهر وقت الصباح صافيا كاللجين ، وظل أوراق الاشجار ذائبة في مائه ، ويصور النهر أيضا وقت الغروب عند ما يلوح ماؤه للعين ورديا ، أى في تلك الساعة من النهار التى تتعانق فيها الاشجار خوفا من هجوم الظلام . انه يصور الاشياء المتحركة تصويراً واقعيا ، فترى السحاب وهو يتجمع ويقترب ثم يبتعد وينطفىء كشمعة صافية تسقط في قلب الليل ، انه يصور رائحة الاشجار والازهار المبللة بندى الليل ، كما يصور الفاكهة الناضجة المغرية وهى في أطباقها على المائدة . والآن نستطيع أن نقول إن « صباغاً » مصور العواطف ، مصور الروح والاحساس ، مصور الهواء والجواء

إذا دققنا النظر ، كنقاد لفنه ، في احدى صوره للاشخاص ، لا نجد انحرافا في قدم أو ذراع دون الاخرى ، ونجد الثياب تشتمل الاجسام محبوكة غير فضفاضة ، وكذلك لا يظهر في أى عضو من أعضاء الجسم اعوجاج في طول أو قصر . ثم هو لا يقتصر على هذه الدقة الكاملة بل يفتن فى معالجتـه لرسم الاشخاص ، أى يتصرف تصرفا مقرونا بالرقة والشهوة والغرام . فآنا يداعب أنامل العذارى بألوان وضاءة تشع كبارق الامل المريح ، وآنا يخصر وسط غادة تخصيراً ناعما نحيلاً ، وآنا يكسو شفتيها بلون المرجان ويغطى أجفانها بكحل يستمد سواده من ظلمة الليل ، الى غير ذلك من الصور الفاتنة التى يمتلىء بها جو الصورة بالاغراء

يعرف « صباغ » كيف يحدد الاجسام بخطوط ناطقة تنفذ منها أشعة السحر والفتنة قبل أن يطليها بألوانه الشفافة في نعومة ورقة ، كأنه الحبيب يمر بيده على جسم حبيبته . انه يكاد يكون أبرع من سجل الوجوه الخمرية التى ذهبتها

قبلات الشمس على الشاطىء ، واحسن من مثّل الاجسام الشهوية وهى ترنو الى أمواج البحر في استغراب ودهشة كالطفل ينظر الى ستار من الحرير الازرق ذي أهداب ذهبية تماوج في الهواء ، فيقف الرائي أمامها مأخوذاً مشدوها فلا يستطيع أن يبدى رأيا ازاء تلك الاجسام التى تكاد تتحدث اليه فتثير مكامن حسه

هذا فيما يختص بأسلوبه في التصوير الخارجي . أما ما يتعلق بتألف الصورة وطريقة رسم الاجسام العارية بنوع خاص Nus فهو يعكف على دراستها أولاً ليستطيع أن يسجل اتزان هيكلها قبل كل شيء ، بمعنى أنه يدرس أعضاء الجسم دراسة تكاد تكون طبية ، ولن يكسوها بذلك الاهاب الشفاف المزرى باكمام الورد إلا بعد ان يستوثق من متانة البناء وتوازن الاعضاء ، وفى اتجاه بحثه لا يعنى بشيء عنايته بالتوازن الكلى و بالانسجام الذى يساير الهيكل الجسماني حتى تخرج الصورة و كأنها لحن موسيقى متقن التنغيم يستعبد الآذان بتطريبه

صوَّر « صباغ » مجموعة من الصور النسائية Portraits كانت في غاية الدقة والاتقان من ناحية التوازن البنائي . وقد يلوح لنا أنه بدأ بتصويرها عارية ثم كساها بعد ذلك رداءها لما بها من أنوثة جذابة تتخللها نشوة الغرام ، فيحس الرائى حرارتها كما يحس وجود تلك الخطوط المنحنية التى تربط أعضاء الجسم بعضها ببعض تحت الثياب . فكم من شفاه ندية أجاد تصويرها فى ذلك الوقت من النهار الذى تشكو الريح فيه آلامها للاشجار ! ! وكم من أذرع رخصة افتن في تصويرها فكأنما هى أذرع الحور العين ! ! وكم من اجفان تخفى تحتها غايات ميدة تهز العواطف وتمس الجانب الخفى من شعورنا الحيوانى ! ! وكم من وجوه رف عليها الجمال الملائكى فأسر القلوب وسبى الافئدة ! ! وكم من صدور عاجية

خلبت الالباب وبهرت الابصار ! ! وكم من قوام ممشوق وعيون ساحرة صوبت الينا سهامها فأصابت منا مواضع الهوى وجلبت الشقاء والابتئاس فكأنما هى سحابة قاتمة فوق حديقة ترتع فيها شوارد الغزلان ! !

عرض «صباغ» عام ١٩٢٢ صورة امرأة عارية «Le Nu à la Fourrure» في معرض المستقلين بباريس حازت اعجاب فطاحل أهل الفن و بلغت به مطالع الشهرة ، كما عرض بعد ذلك صورة رسمها على نموذج موضوع قديم . وكلنا يذكر صورة المصور مانيه Manet المشهورة « Le déjeuner sur l'herbe » (تعاطى الغداء على العشب) التى كان لها الشرف أن ترفض في صالون باريس سنة ١٨٦٣ إذ كانت تعبر عن فكرة تنأى عن طهارة الفن . والسبب فى ذلك ان مانيه Manet جمع في تلك اللوحة نساء عاريات يخالطن رجالا متشحين ثيابهم ، فعد ذلك عملا يشوب الفن و يبرز ما يكمن في تلك الاجسام من شهوة واغراء فتبعد الرائى عن تذوق الفن وتدفعه الى تفكير حيواني . وقد صور « صباغ » فى صورته هذه رجلين يرتديان ثيابهما وثلاث نساء عاريات ، فاثارت هذه اللوحة المعركة القديمة حتى نبهت الاذهان الى شخصية « صباغ » وربما كانت سبباً من تلك الاسباب التى قامت عليها شهرته بل لعلها كانت السبب الاول الذى استطاع أن يفيد من ورائه مالا وكسباً

كان بودنا أن نحلل أعمال الاستاذ « صباغ » الفنية تحليلا وافيا ما دمنا بسبيل التحدث عنه ، وأن نذكر آراء كبار النقاد الاوربيين عن فنه ، وأن نذكر جميع الكتب والنشرات التى تناولت أعماله بالبحث والتمحيص ، ولكن هذا يستلزم مجلاً بحاله ، ويكفى أن نشير الى تلك الكراسة التى نشرت في فرنسا عام ١٩٢٦ ، وهى تحوى بين دفتيها طائفة كبيرة من الصور الفوتوغرافية عن معظم

مبتكراته مصدرة ببحث تحليلي للكاتب الكبير Schneeberger شنيبرجر

***

لبضع سنين خلت فكر « صباغ » في زيارة مصر على ان يمضى فيها فصل الشتاء من كل عام ليعرض بعض لوحاته في المعرض السنوى للتصوير ، وليرسم مناظر هذه البلاد لشعوره بالحنين اليها و بالجاذبية التى تدفعه الى تسجيل مناظرها، ولاحساسه بالقدرة على تصوير تلك المناظر في يسر وسهولة . والواقع أن تصوير « صباغ » لا يعد تعبيراً سطحيا لتلك المرئيات انما هو تعبير داخلى عميق يشف عن العواطف الناطقة التى تسبح في جو هذا البلد الذى ولد فيه طفلا وتربى صبياً

يقطن «صباغ» في مسكن في الدور التاسع من عمارة شاهقة بميدان الاسماعيلية، يلوح من نوافذها جبل المقطم وجامع القلعة ، الامر الذى مكّن له من تصوير تلك المناظر عشرات المرات في ساعات متفاوتة من ساعات الليل والنهار،فجاءت تلك المناظر آية من آيات التصوير وتحفة من تحف الفن . زرت « صباغاً » فى مسكنه وكان بسبيل أمام صورة زيتية كبيرة الحجم تمثل امرأة عارية ملقاة على ظهرها وسط حديقة غناء والسماء ملبدة بالغيوم ، ولما كان منظر السماء يشغل ثلاثة ارباع اللوحة كان من الطبيعى أن يعتقد الرائي أن الغرض الاساسى من وضعها على هذا النحو هو تصوير السحاب ودراسة جو السماء ، والواقع أن سماء تلك الصورة كانت مخيفة تشعر الرائى برهبة ما يملؤها من الزوابع والاعصار وأن البرق يخترق طبقاتها في مشهد مزعج ، وأن الرعد يزلزل أركانها زلزلة رهيبة ، وكأن السماء فى مجموعها بركان ثائر يتناثر منه الحمم وتتفجر منه قطع الهلاك ! ! ذكّرنا هذا المنظر المخيف بموسيقى فجنر Wagner لكثرة ما تحتوى عليه من الالحان القوية الحادة والنغمات المثيرة الهائجة . أما المرأة العارية فقد احتلت

الربع الاخير من أسفل اللوحة ، وقد صورها « صباغ » فابدع تصويرها وكأنه قد رسم تلك السماء لتكون ستاراً عجيباً يظلل هذه المعبودة في فزع وروعة مرهوبين ، فكان ذراعاها وقدماها منحنية في وضع ساحر تتألق ألوانها كما يتألق ماء النهر وقت الفجر ، وكان ثدياها أشبه شيء بكومتين من الورد الابيض زاهرين ناهدين كأنهما يتطلعان نحو السماء في طلب يد حنون رحيمة ، وأشعة النور تنضوا عليهما فتجعلهما يرتعشان كعصفورين بللهما القطر

ويجدر بنا أن نذكر في هذا السياق أن كبار المصورين كانوا ، في فترة معينة من الزمن ، يعيرون جميع المرئيات المرسومة على صورة واحدة ـ سواء كانت حية أم جامدة ـ اهتماماً شاملا وتقديرا عاماً فيعالجون الوجه الانسانى بنفس الدقة و بقوى النور والظلال التى يعالجون بها أثاث المكان . وقد تغيرت هذه الطريقة تغييراً قليلا بحكم مرور الايام والسنين وأصبح المصورون يحصرون همهم ، في بحثهم ، عن «موضوع» الصورة عند البدء في التصوير ، فيعالجون هذا الاساس معالجة خاصة من ناحيتى الظلال والنور ، ثم يجعلون باقى التفاصيل في المرتبة الثانية من الاهمية بالرغم مما تستلزمه من دقة وعناية فى التصوير

لهذا لم أستبن الغرض الاصلى من معالجة تلك اللوحة على هذه الكيفية فسألت «صباغاً» عن قصده : أهو الغادة أم جو السماء ؟ فقال : « ان الذي ساقني الى معالجة هذه اللوحة بهذا الاسلوب هما الاثنان معاً وهما موضوع الصورة . على أننا نرى شبه ذلك في موسيقى «فجنر»، وأنت تعلم أن أقرب شيء الى العواصف والغيوم هو تلك الموسيقى الصاخبة ، فما شهدت رواية موسيقية له إلا شعرت غير مرة أن قواى تتلاشى وأعصابى تفتر أمام تلك الموسيقى الجبارة ، وا كاد اكون بمعزل عن تفاصيل الرواية ، فاذا ما غنى أحد كبار المغنين بصوته البلورى

الحنون أراه ينفذ من وسـط ذلك الضجيج فيخترق عواصف تلك الموسـيقى ورعودها فيصل الى السمع جليـاً حنوناً . ولم يكن فى استطاعتي أن أغفل ذلك الصوت العذب ، كما لم يكن فى استطاعتى أيضاً أن أتنكر تلك الموسيقي العاتية ، ولم يكن في مقدورى أن أفاضل بين أحدهما والآخر في مكان الاهميـة . وإننى لعلى يقين بانه لا يمكن استعمال مثل هذا الاسلوب وهذه المعالجة في لوحة أخرى إلا إذا كان الغرض موضوعين ذوى أهمية واحدة »

***

تركت مسكن « صباغ » وانا أسبح في نفحات من الظـلال والنور كأننى أسير وسط موجة من النغمات الملونة ، تركت مسكنه وخيالى يفيض علىَّ بما احتـواه من أثاث فاخر وتحف نادرة الوجود في أى مرسم من المراسم . مدخل هذا المسكن هو حجرة فسيحة كل ما تشتمل عليه من أثاث ملون باللون الاحمر حتى الابواب والنوافذ ، ومعلق على جدرانها لوحات أزهار مختلفـة الانواع كان أريجها يعطر تلك الحجرة بعطورها المتباينة ،حتى خيل إلىَّ أننى وسط وردة حمراء ذات عطر فياح . وفى صالون الاستقبال كنت محاطاً برياش تختلف الوانها من لون الازهار ولا تشبه ما اعتدت رؤيتـه في مساكن المصورين ، وعلى جدران ذلك الصالون عُلقت لوحات أنيقة كان يتضوع من جوها عطر النبات والشجر ، وكانت أواني الزهر منتثرة على الموائد والارفف تحمل باقات من الزهر الحى ذي الرائحة الشـذية ، وكانت الازهار مبعثرة في كل مكان حتى لتجدن رسومها مطرزة على الطنافس والسجاد والاستار الحريرية ولم تخل منها كذلك مفارش المائدة والاطباق وباقى الاوانى الزجاجية ، فكان المكان يموج بالازاهير ويفوح برائحتها

ومن هنا يجدر أن نقول إن روح « صباغ » قد صيغت من الزهر ونسجت خيوط قلبه منه . و بالرغم من ان روحه قد لطف فأصبح فى رقة الزهر إلا أنه مصور قدير يكمن في ثنايا اهابه عنفوان الفنان الجبار

ولو كان لنا أن نشبه تصوير « صباغ » بفن من فنون الادب لـكان أشبه شيء بقصيدة غزلية للشاعر شوقي منقوشة على قطعة من الرخام بأحرف من الذهب الخالص لانها تسيل رقة وتنسجم جمالا وتروع قوة ونوراً

ونتمنى أن يساير التوفيق هذا الرجل الذي قرر أن يناوش الطبيعة فينتزع منها عنوة حسنها وجمالها فيكسو بهما صوره الخالدة . وليس هناك مصور اجتمع له حنان الفن وجبروته ، وتناثرت حوله مباهج الشهرة ، وتهافت الناس على اقتناء لوحاته مثل ما اجتمع لصديقنا المصور المصرى « جورج صباغ »

احمد راسم

١٩٣٦



جورج صباغ في مرسمه



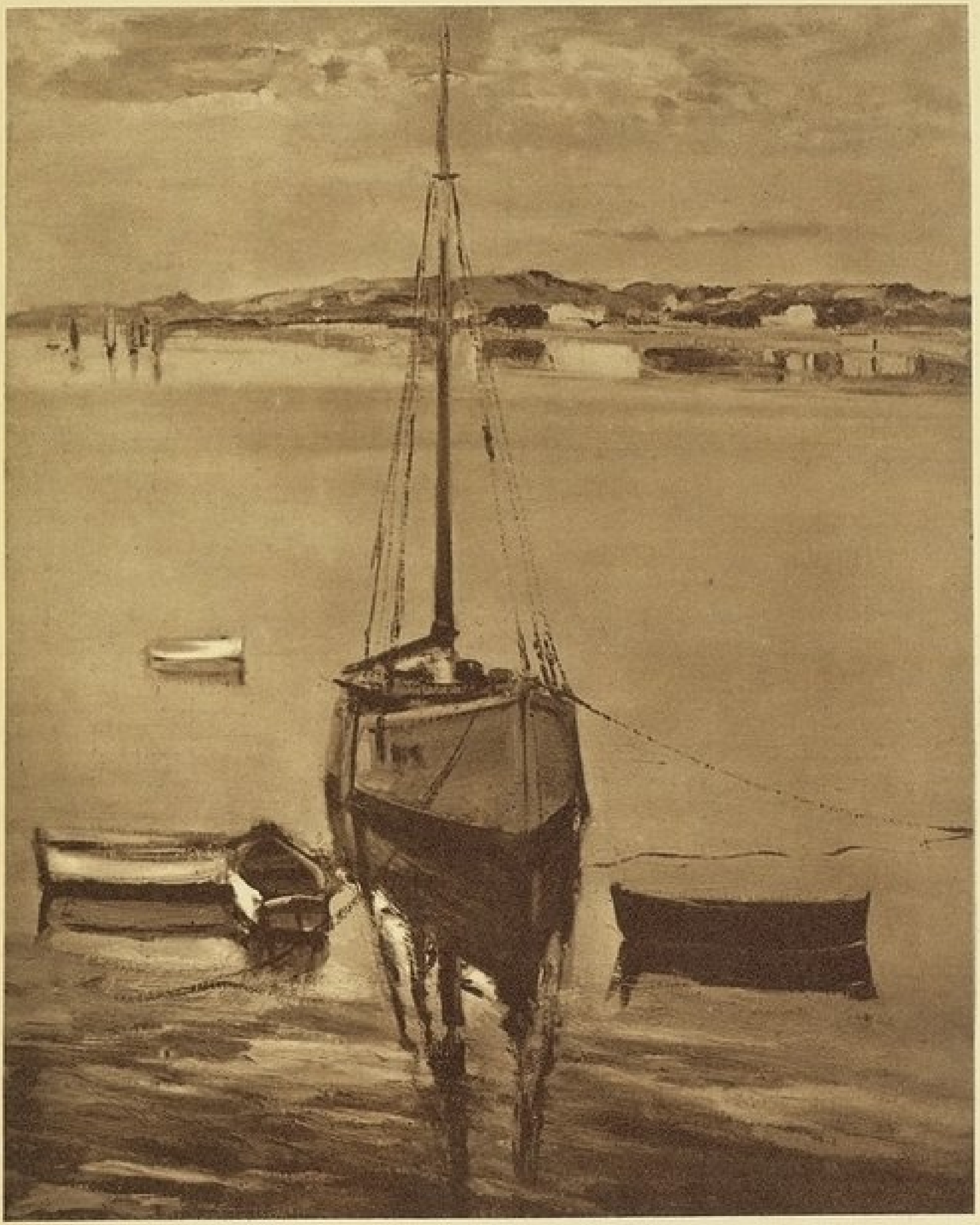
مولد آلهة الجمال



المرأة العارية على أريكتها (بمجموعة في باريس)



شابة مصرية (هذه الصورة في حيازة المصور)



الصباح فى بلومانالك (هذه الصورة في حيازة الاستاذ ميشيل صيدناوى)





شجر النبق الهندى بمصر القديمة (توجد هاتان الصورتان في الغرف
التى خصصت للمغفور له جلالة الملك فؤاد الاول بالمفوضية المصرية بأثينا)



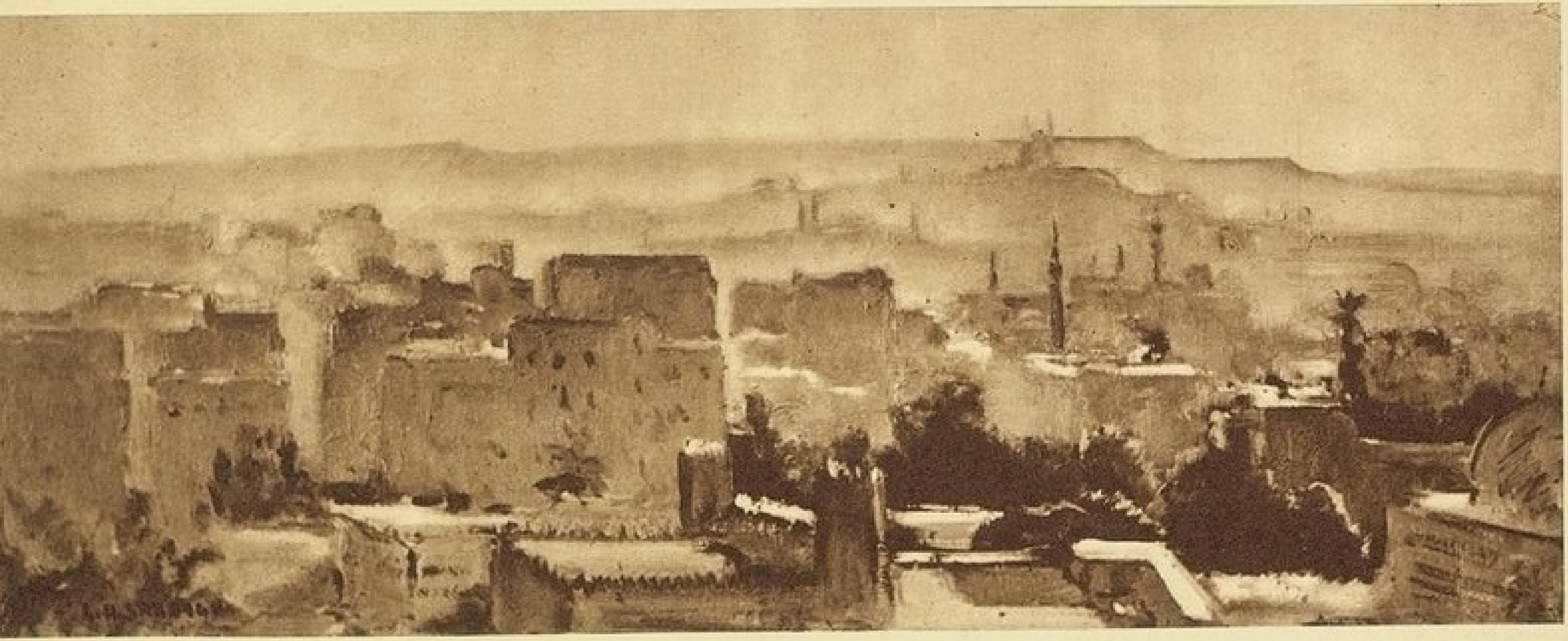
قناة المحمودية (هذه الصورة موجودة بسراى انطونيادس بالاسكندرية)



فلاحة



مدام روز زيدان (هذه الصورة في حيازة مدام زيدان)



جبل المقطم (مما اقتناه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق)



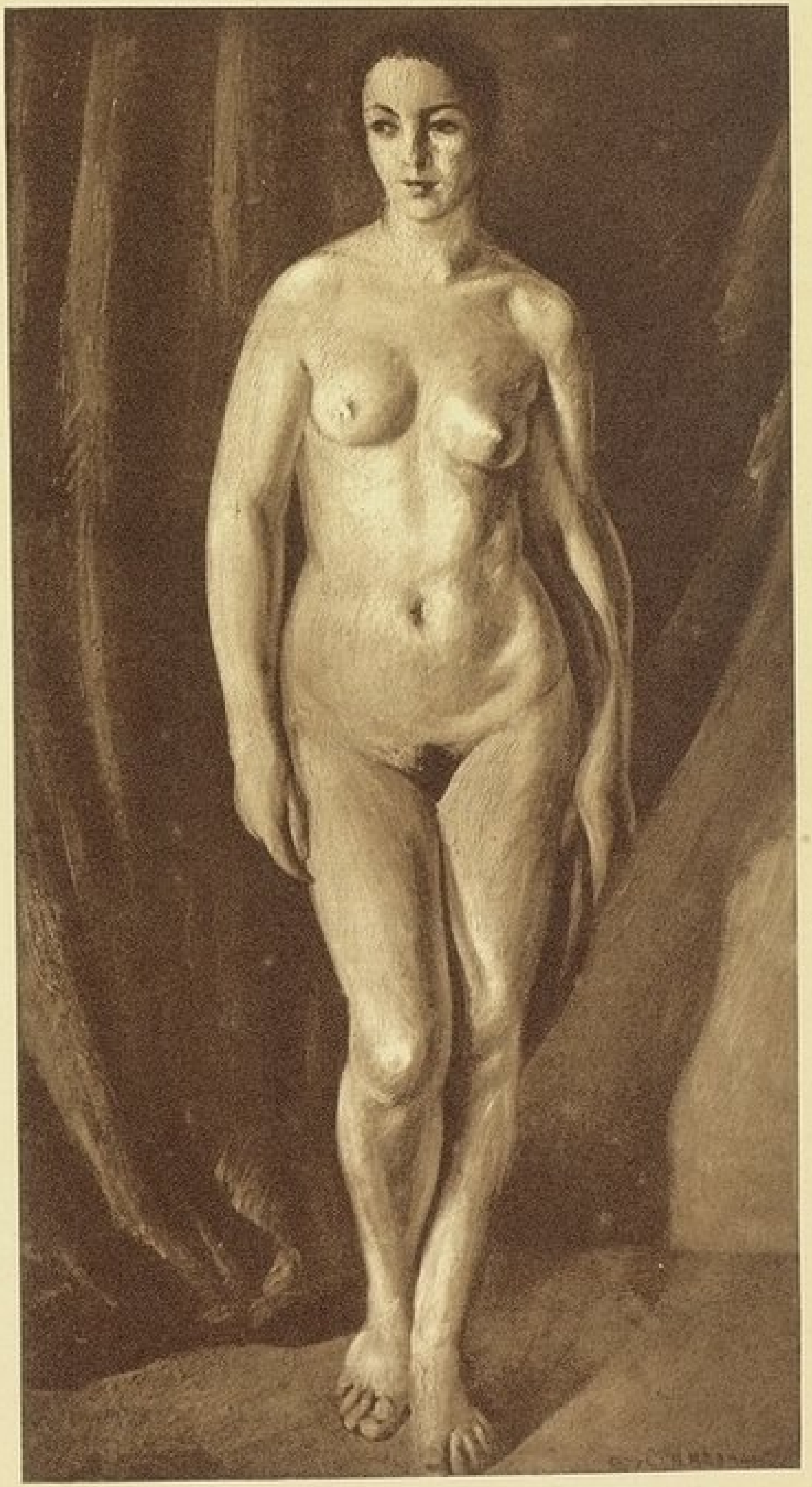
المرأة العارية ذات الفراء
(مجموعة هيلير باريس)



منظر الجزر فى بلوماناك (هذه الصورة موجودة بمجموعة في باريس)

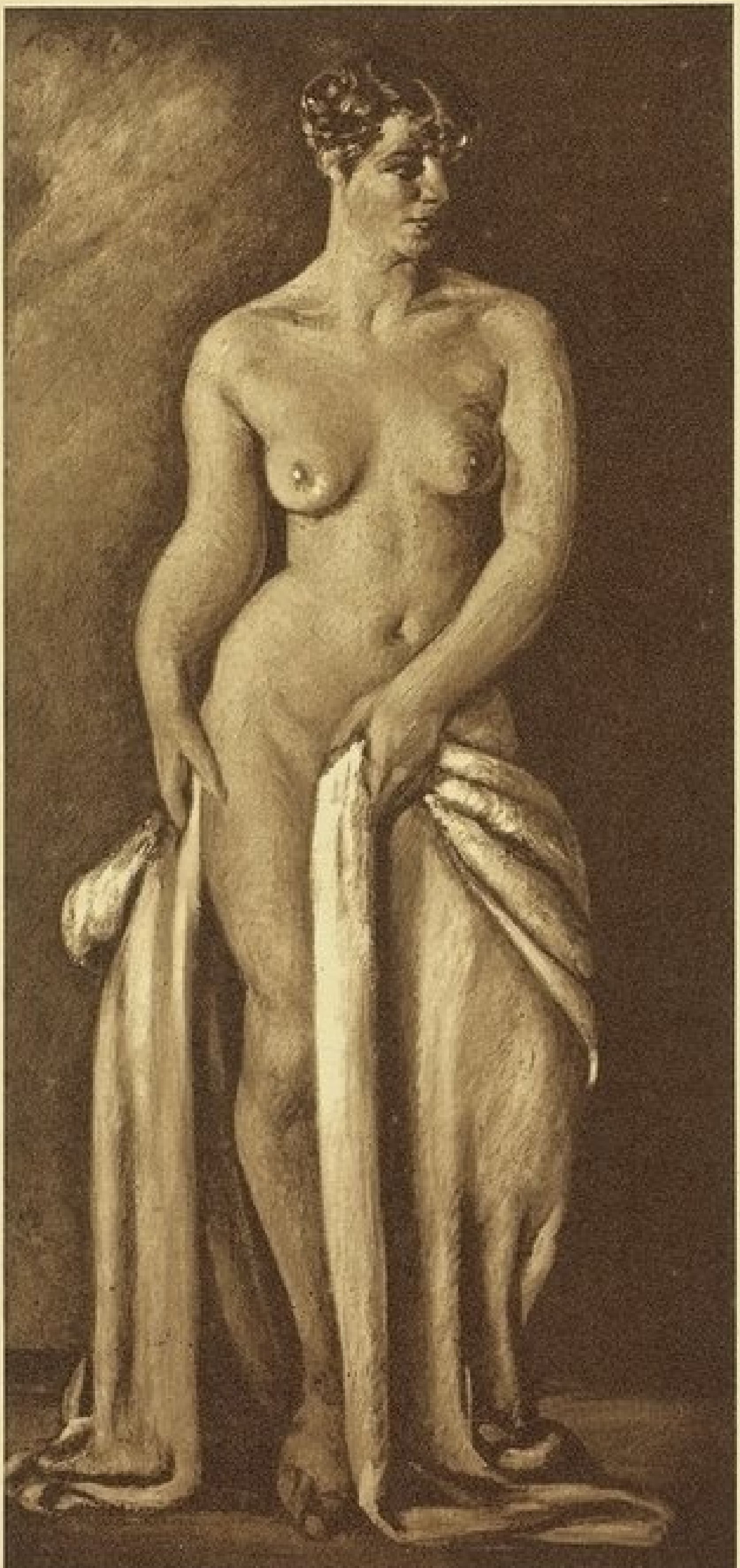


على طريق مصر القديمة (هذه الصورة في حيازة المسيو جورج دي ميناش)



الواقفة

(بمجموعة نوبل بباريس)

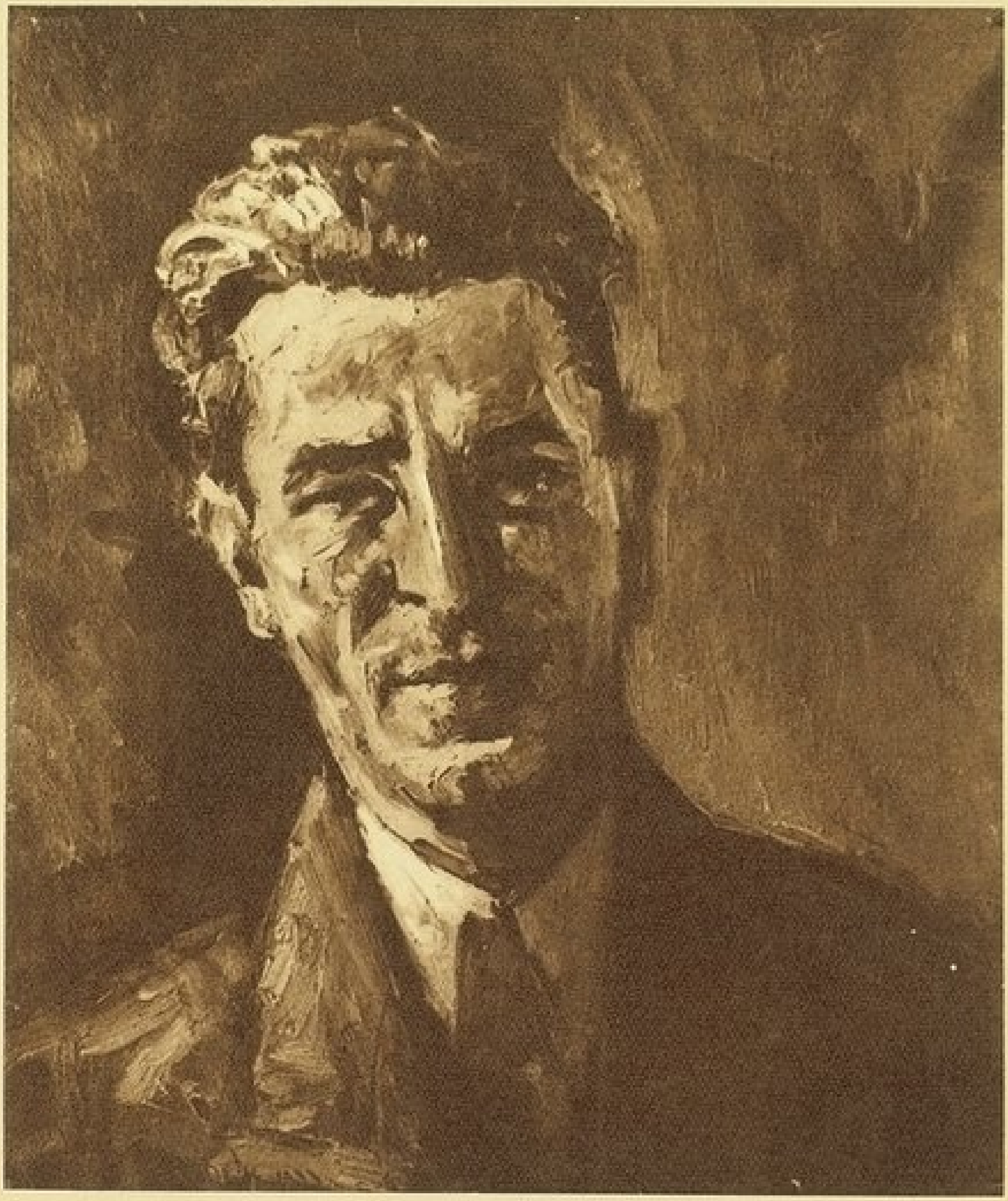


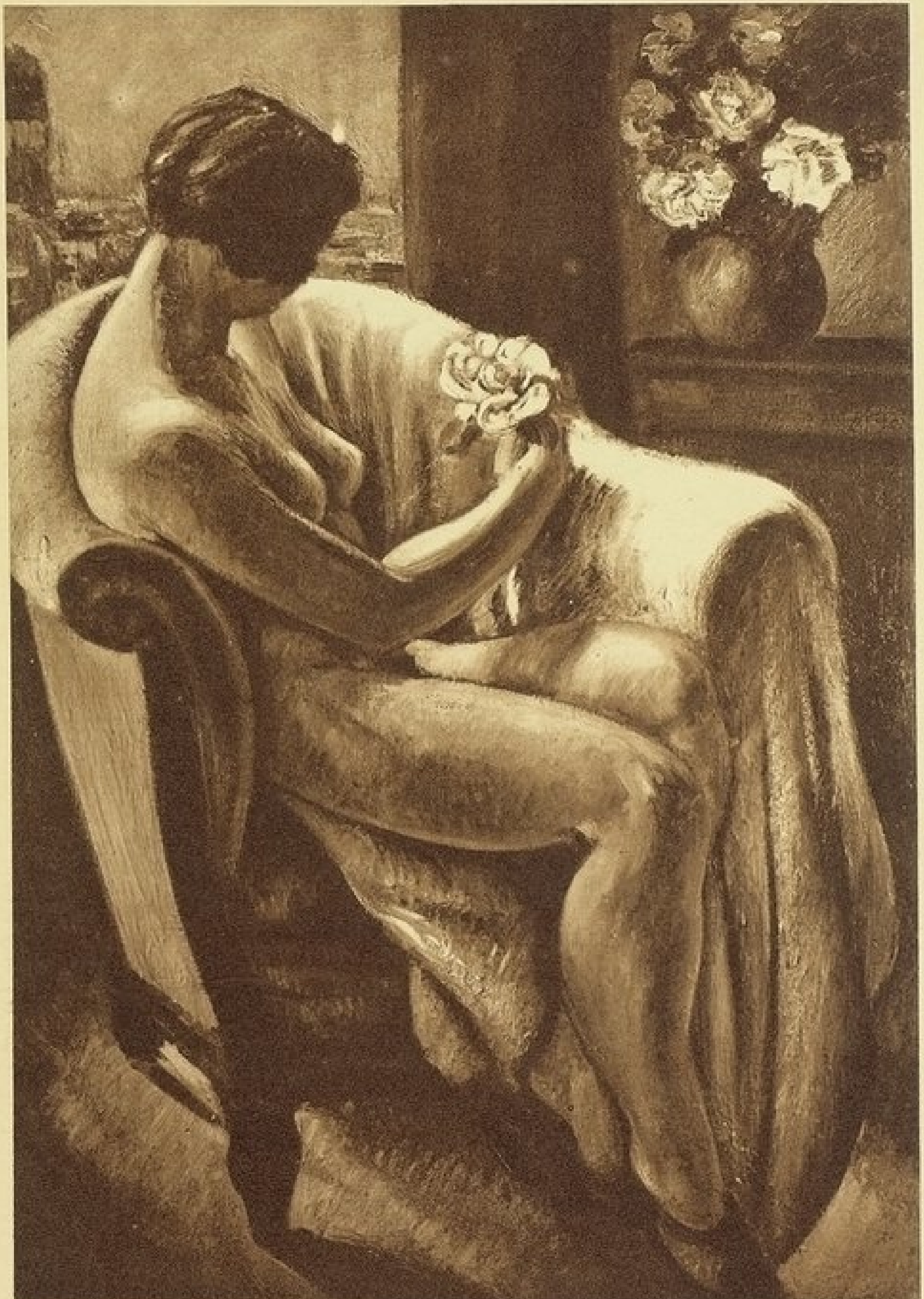
المرأة العارية
على الطريقة القديمة
(هذه الصورة موجودة
بمجموعة هيلير باريس)



صورة مدام ا . ز . (فى حيازة المصور)

الاستاذ ا. ز.





الوردة البيضاء (بمجموعة الار باريس)

(في حيازة مجموعة لوكير بباريس)



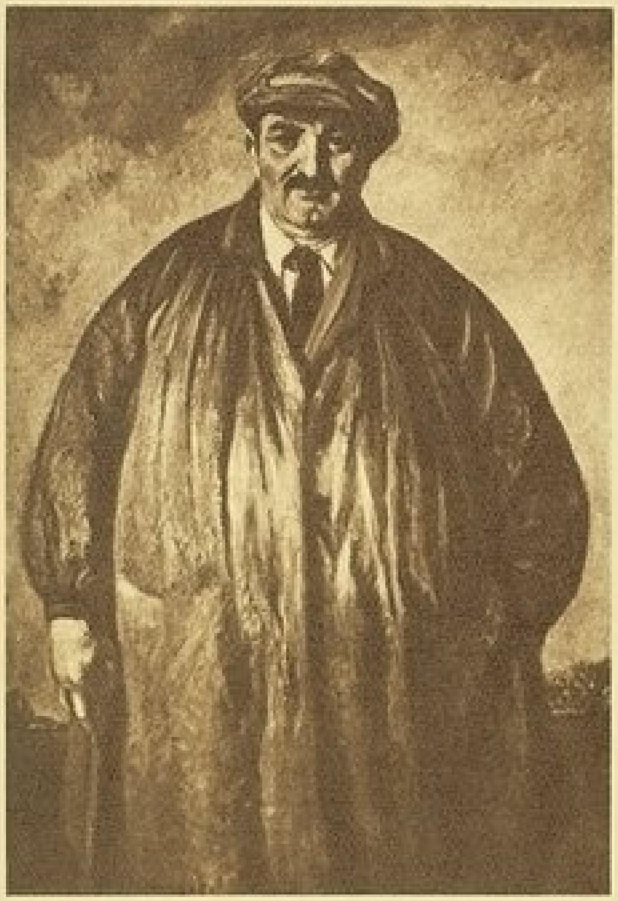
درس في العراء

(في حيازة مجموعة ارمنجو بباريس)





بعد الاستحمام (هذه الصورة في حيازة المسيو هنري ديانه)



خولى فرنسى
(موجودة بمجموعة باريس)

مسيو جاك موصيرى
(في حيازة مسيو موصيري)

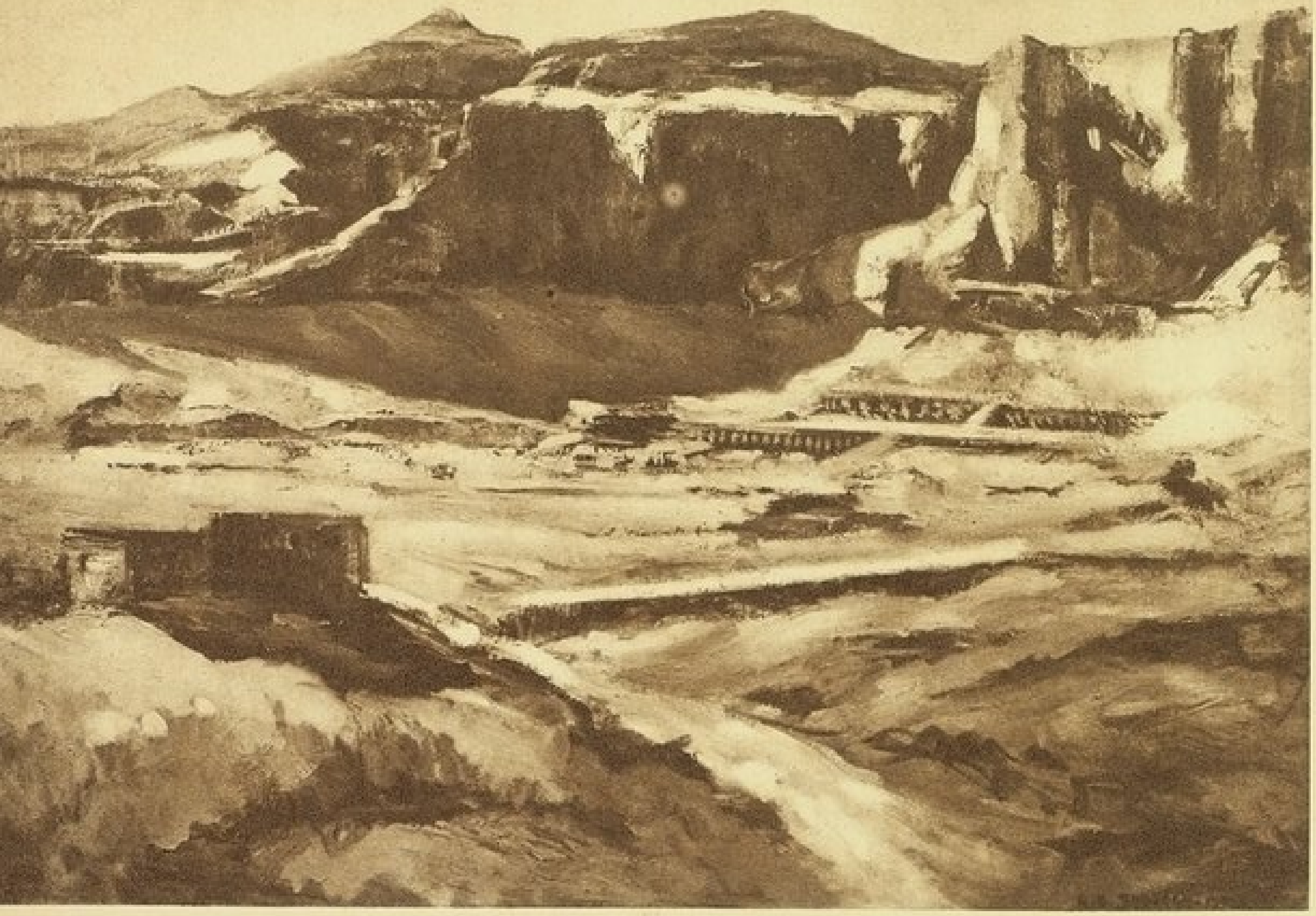




فلاحة فرنسية (في حيازة مسيو بازيل ماركو)



الدير القبطي بالمعادى (هذه الصورة موجودة بمتحف الفنون الجميلة بمصر)



وادى الملوك (مجموعة بوفريه باريس)



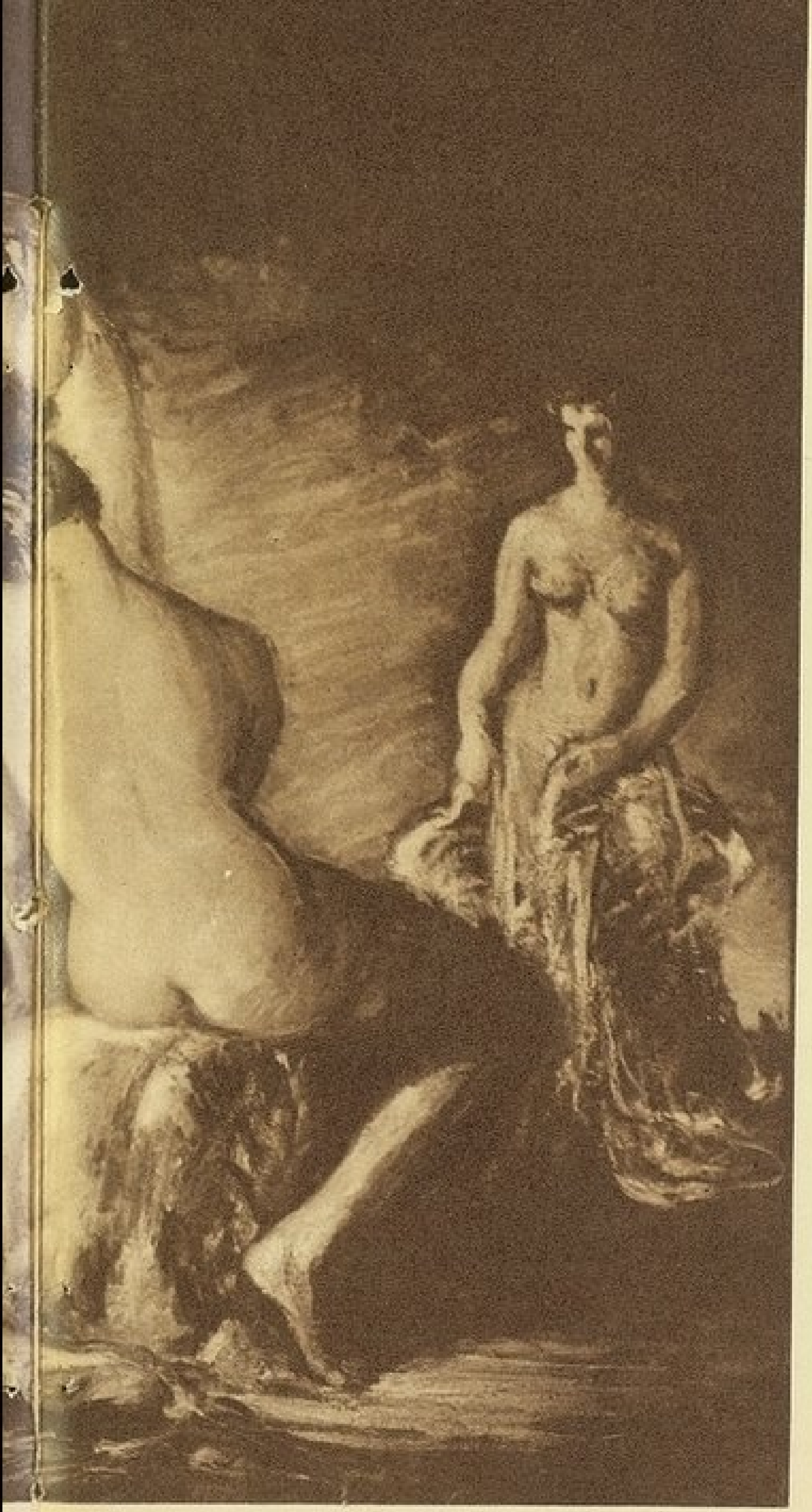
عاصفة على شواطىء بريطانيا الفرنسية (هذه الصورة موجودة بمتحف الفنون الجميلة بمصر)



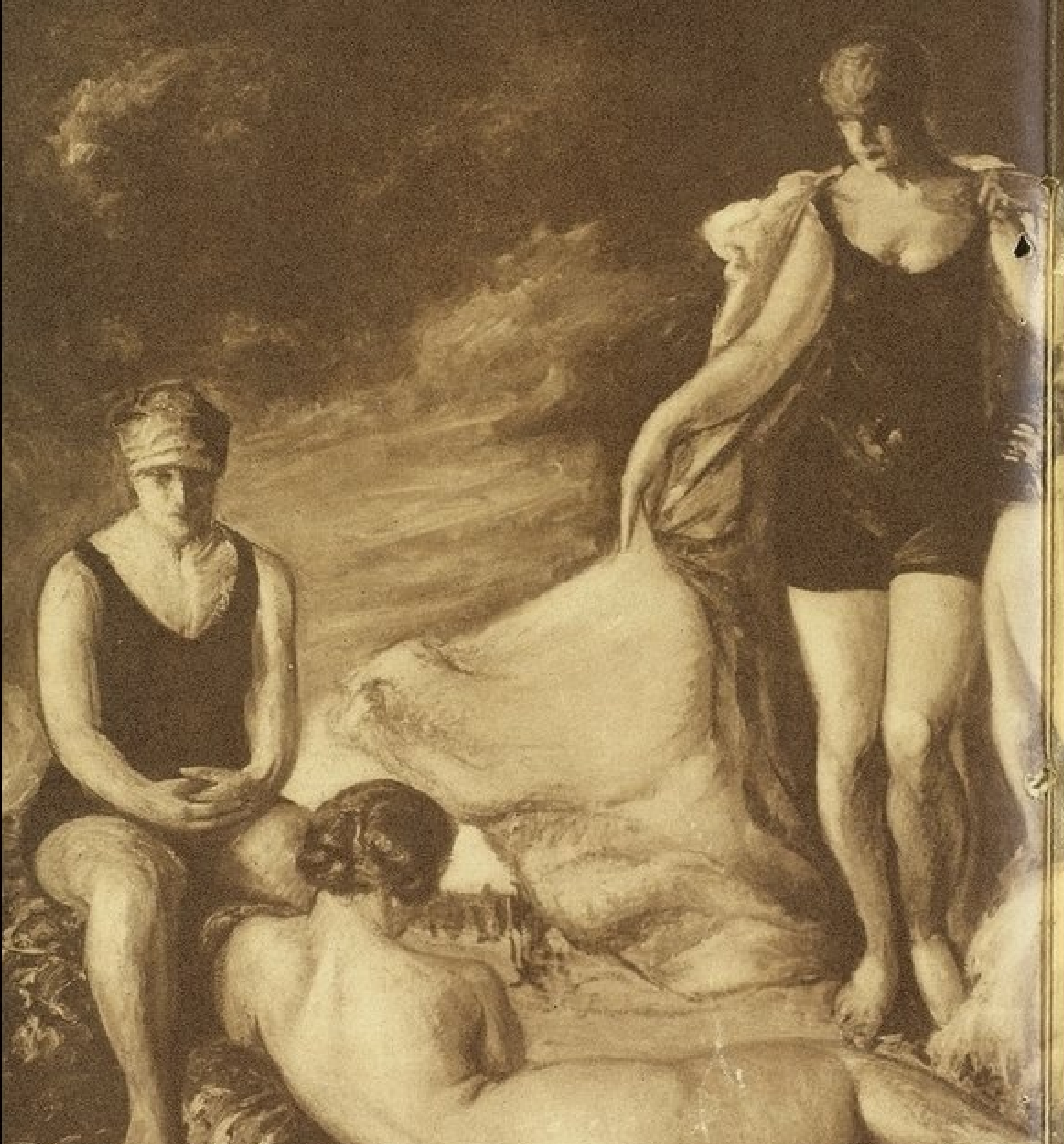
ابن المصور صباغ وهو يكتب (فى حيازة المصور)

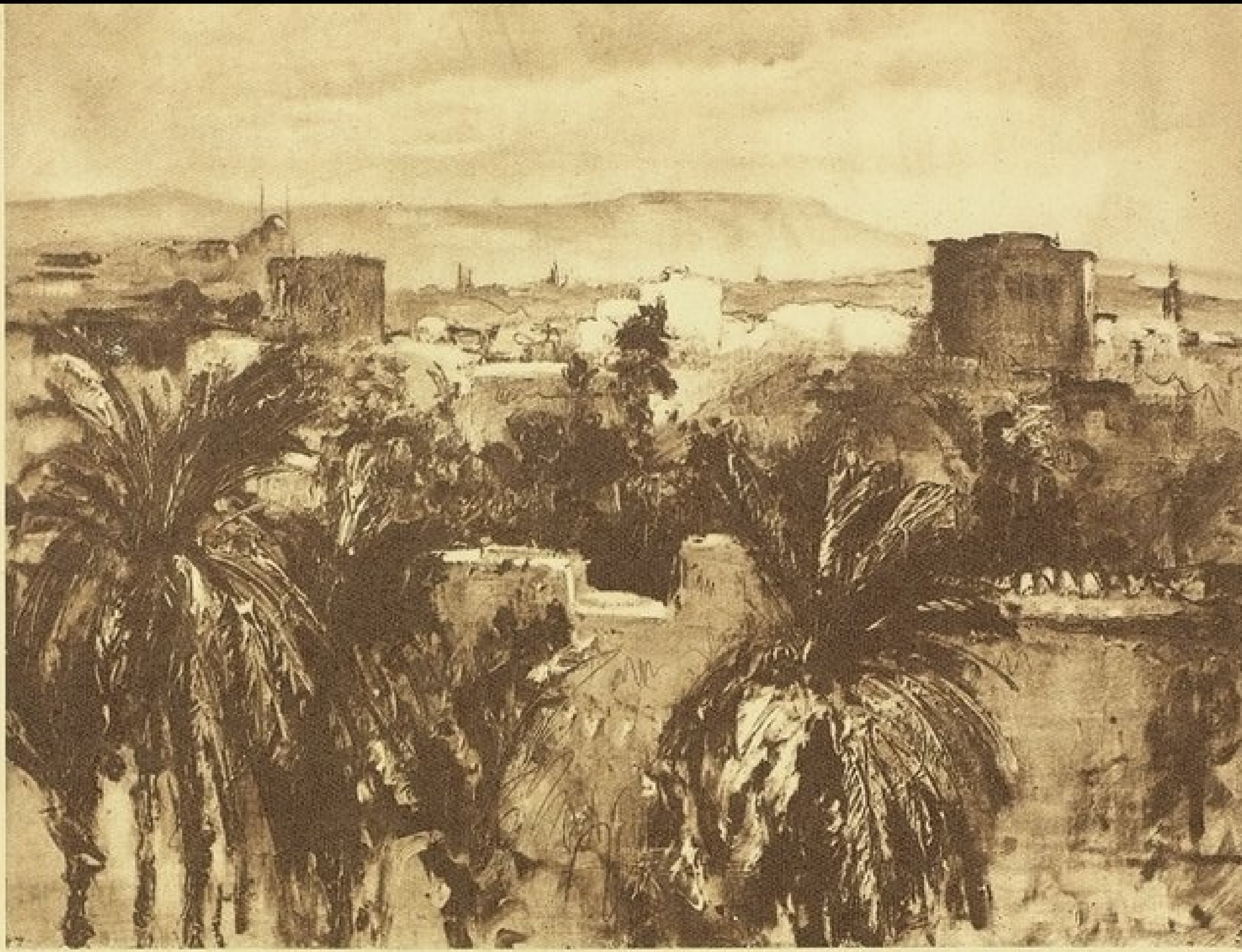


(هذه الصورة موجودة بمتحف اللوكسمبرج)

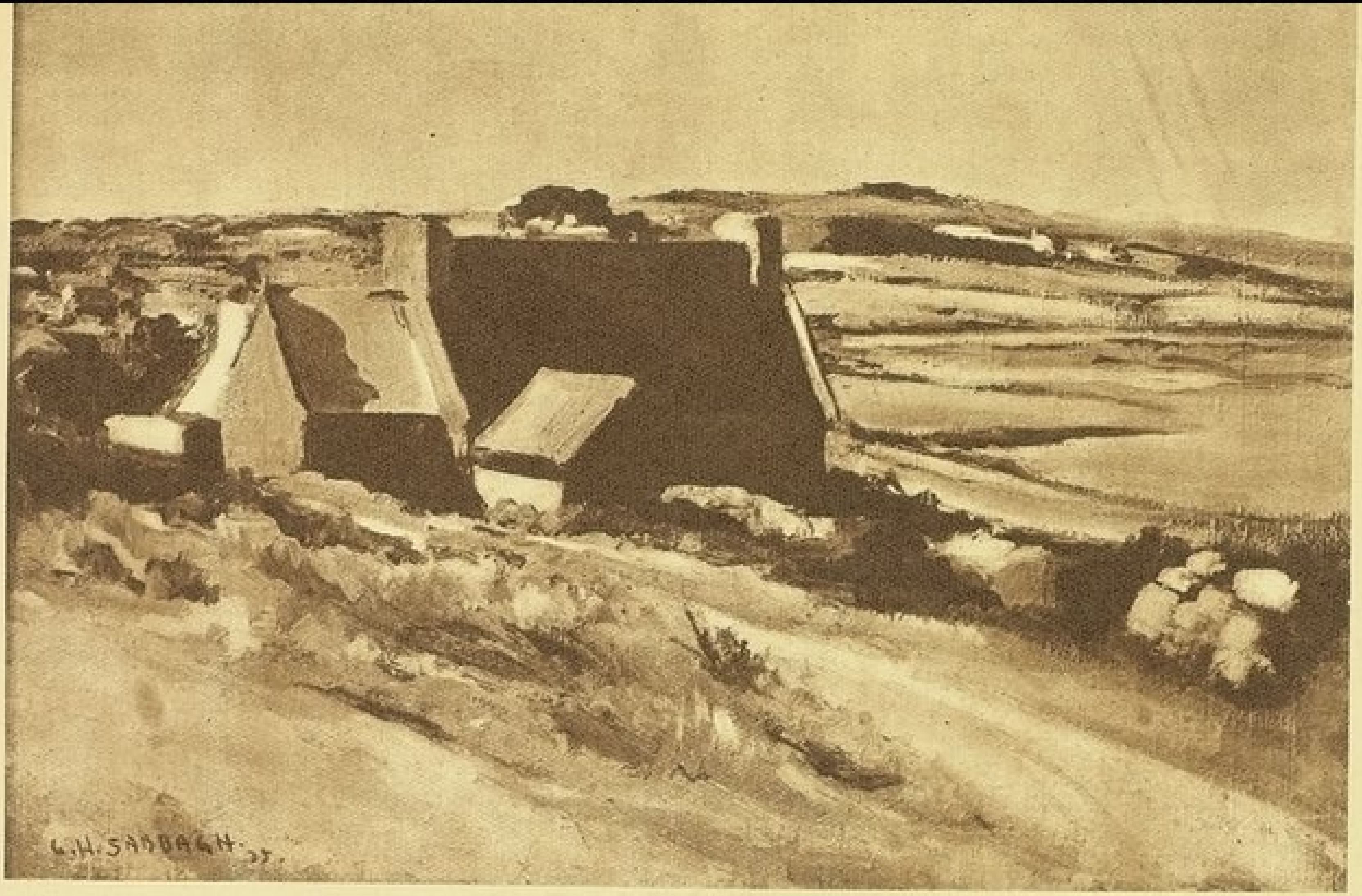


على الشاطىء
(هذه الصورة موجودة
بمتحف فلادلفيا بامريكا)





جبل المقطم (هذه الصورة في حيازة المسيو جورج دوان ببورسعيد)



منازل ببريطانية الفرنسية (فى حيازة المصور)



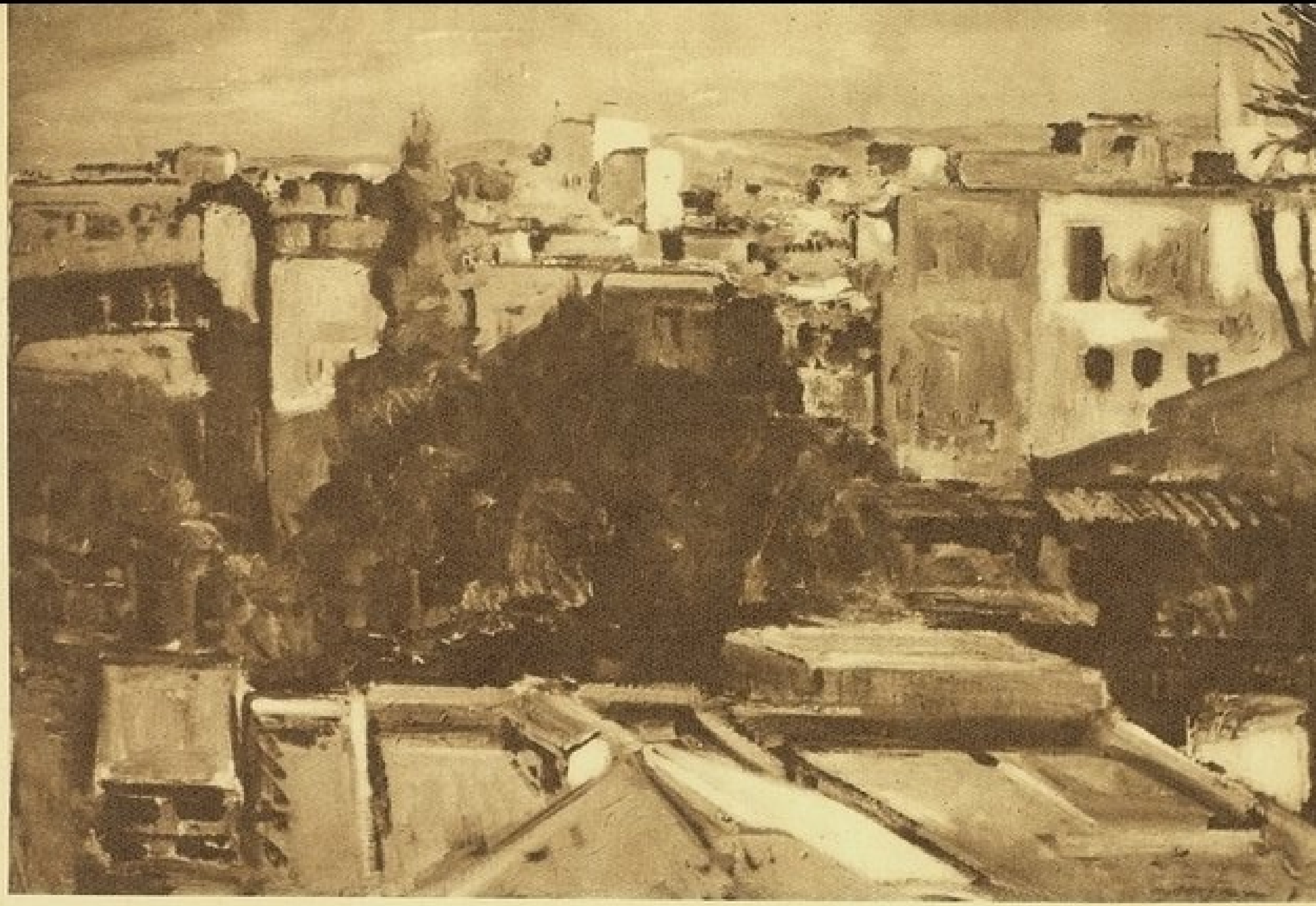
اصوان (هذه الصورة موجودة بمكتب معالي وزير المعارف العمومية والفنون الجميلة بمصر)



البحر فى الغسق (فى جناح جلالة الملك بالمفوضية المصرية بأثينا)



عاصفة في المحيط (هذه الصورة في حيازة الاستاذ اسعد باسيلي)



المقطم – من نافذة المصور – (في حيازة المصور)



روض الفرج